عبودية الإنسان لله تعالى في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية

إعداد

الدكتور ساجد الرحمن الصديقي*

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على حبيبه سيدنا محمد المصطفى.وبعد

فقد اقتضت حكمة الله عز وجل، أن يخلق أشرف الخلائق وأكرمها في الوجود، فخلق الإنسان من طين ثم سواه ونفخ فيه من روحه، فجاء من أجل هذه النفخة الربانية مكرماً مختاراً مريداً، فكان طبيعياً من حيث خلقته المنفردة في الكون أن يكون له دور هام وعمل خاص يقوم به، وهو أن يكون عبداً لله باختياره وإرادته، بينما كانت الخلائق كلها منقادة لله مستسلمة له من دون اختيار لها ولا إرادة.

فالله هو الخالق، والخالق هو المالك، والمالك هو المتصرف في الأمور وفعال لما يريد، وإذا كان ذلك كذلك فهو المعبود بحق لا سواه، والإنسان هو العبد الخاضع له، الفقير إليه، الخانع الذليل أمامه، ومن هذا ظهر لنا أن العبودية حق قائم على الإنسان، وفريضة واجبة عليه، لا يستطيع الفرار عنها، ولا يمكن له أن يرغب عما وجب عليه من حيث خلقته ومن حيث وجوده.

---

* – مشرف قسم التخصص في الدعوة والإرشاد بجامعة دار العلوم كراتشي.

الحاجة إلى بعثة الرسل والأنبياء

ولكن لما كان الإنسان بادراكه وعقله لا يستطيع أن يعرف ما يجب عليه من واجبات العبودية وما يلزم عليه من فرائضها، أرسل الله إلى الناس بين الفترة والأخرى رسولا يحمل من الله كتاباً يدعوهم إلى عبادة الله وحده يبشرهم وينذرهم، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. كما يدل عليه قوله سبحانه:

﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِيْنَ وَمُنْذِرِيْنَ لِئَلاَّ يَكُوْنَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[1].

واستمرت الإنسانية في تطورها ورقيها الفكري والوحي يتنزل بما يناسبها ويرشدها إلى ما فيه خيرها وصلاحها، حتى اكتمل نضجها. وأراد الله لرسالة محمد ﷺ أن تشرق على الوجود، فبعثه على فترة من الرسل؛ ليكمل صرح إخوانه الرسل السابقين بشريعته الخالدة وكتابه المنزل عليه وهو القرآن الكريم.

"مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلاّ وضعت هذه اللبنة قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين"[2].

فكانت بعثته- ﷺ -إيذاناً بانتهاء النبوات، وإعلاماً باختتام الرسالات، وتبشيراً بإكمال الدين، وإخباراً بإتمام النعمة. ولهذا وجب علينا التأسي بأسوته الحسنة والاستهداء بهديه في أمور حياتنا كلها، وعلى الأخص ما يتعلق بعبودية العبد لله تعالى، عملا بقول الله عز وجل:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيْ رَسُوْلِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُوْ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْأَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيْراً ﴾[3].

---

[1]- سورة النساء آية ١٦٥

[2]- أخرجه البخاري ومسلم.

[3]- سورة الأحزاب آية ٢١.

ومن وضع جبهته لله ساجداً، واقتدى بهدي الرسول ﷺ، في حياته كلها، فقد فاز فوزاً عظيماً. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ليكون المرء عبداً لله بالاختيار

إن الله سبحانه خلق الأرض ومن عليها، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين؛ قال تعالى موضحا ذلك:

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُوْنَ بِالَّذِيْ خَلَقَ الْأَرْضَ فِيْ يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُوْنَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِيْنَ (٩) وَجَعَلَ فِيْهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيْهَا وَقَدَّرَ فِيْهَا أَقْوَاتَهَا فِيْ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِيْنَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَآئِعِيْنَ﴾[١].

فخلق الله الكون كله وما فيه من الأشياء والموجودات، وقال لها كن فكانت وجبلت على الطاعة والإتيان بالأمر طبعاً لا خيار لها فيه. وخلق الله الإنسان من طين ثم سواه ونفخ فيه من روحه، قال تعالى:

﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِيْنٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّآءٍ مَّهِيْنٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيْهِ مِنْ رُّوْحِهِ ﴾[٢].

وقد كرمه بالروح العلوية التي أودعها بين جنبيه، وأعطاه من مواهب الروح والعقل والقدرة ما يمكنه من أعباء التكليف ما لم يعط أحدا من العالمين.

---

[١]- سورة فصلت الآيات من ٩ إلى ١١.

[٢]- سورة السجدة الآيات من ٧ إلى ٩.

إن الله تعالى خلق الإنسان وأعطاه كثيراً من المواهب الفكرية والعقلية والروحية ليكون عبداً لله بالاختيار حينما كان الكون كله وما فيه من الموجودات عبيداً لله بالاضطرار. وقد دلت على ذلك آيات كثيرة، منها؛ قوله تعالى:

﴿ وَإِنْ مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُوْنَ تَسْبِيْحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيْماً غَفُوْراً ﴾ [1]

وقوله سبحانه:

﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً ﴾ [2]

وقد خصّ الله تعالى الجن والإنس بعبوديته، فقال عز من قائل:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُوْنِ ﴾ [3]

معنى العبادة

والعبادة في اللغة من الذلة، يقال: طريق معبد، وبعير معبد؛ أي مذلل، وفي الشرع عبارة عن ما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف.[4] والعبادة أعلى مراتب الخضوع ولا يجوز شرعاً ولا عقلا فعلها إلا لله تعالى لأنه هو المستحق لذلك، لكونه موليا لأعظم النعم من الحياة والوجود وتوابعهما، ولذلك يحرم السجود لغيره سبحانه، لأن وضع أشرف الأعضاء على أهون الأشياء وهو التراب وموطئ الأقدام والنعال غاية الخضوع.[5] وقد روي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: قال جبريل لمحمد ﷺ ، قل: يا محمد إياك نعبد، إياك نوّحد ونخاف ونرجو يا

---

[1]- سورة الإسراء آية ٤٤.

[2]- سورة مريم آية ٩٣.

[3]- سورة الذاريات آية ٥٦.

[4]- ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٤١/١.

[5]- الآلوسي : روح المعاني٨٦/١.

ربنا لا غيرك. [1]والعبودية هي إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى ولهذا قال ألا تعبدوا إلا إياه.[2]

العبادة والعبودية

ولا شك أن العبادة والعبودية مقام عال شريف، يدل على ذلك آيات كثيرة، منها: قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُوْلُوْنَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِيْنَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِيْنُ(٩٩) ﴾ [3].

فأمر الله تعالى: محمداً ﷺ، بالمواظبة على العبادة إلى أن يأتيه الموت، ومعناه أنه لا يجوز الإخلال بالعبادة في وقت من الأوقات، وذلك يدل على غاية جلال أمر العبادة. ولما قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُوْلُوْنَ﴾.

أمره بأربعة أشياء:التسبيح، والتحميد، والسجود، والعبادة، وهذا يدل على أن العبادة تزيل ضيق القلب، وتفيد انشراح الصدر، وما ذاك إلا لأن العبادة توجب الرجوع من الخلق إلى الحق، وذلك يوجب زوال ضيق القلب. [4]

ومنها قوله تعالى:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ﴾ [5].

---

[1]- الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١٠٣/١.

[2]- الراغب الأصفهاني: المفردات، تحت كلمة عبد.

[3]- سورة الحجر الآيات من ٩٧ إلى ٩٩.

[4]- الرازي: التفسير الكبير ٢٥٤/١.

[5]- سورة الفاتحة آية ٤.

هذه هي الكلية الأساسية التي تنبع منها الشريعة بأسرها، فلا عبادة إلا لله ولا استعانة إلا بالله. وهذا هو مفرق لطريق بين التحرر المطلق من كل عبودية، وبين العبودية المطلقة للعبيد. وهذه الكلية تعلن ميلاد التحرر البشري الكامل الشامل. التحرر من عبودية الأوهام. والتحرر من عبودية النظم المادية، والتحرر من عبودية الأوضاع. وإذا كان الله وحده هو الذي يعبد، والله وحده هو الذي يستعان، فقد تخلص الضمير البشري من استذلال النظم والأوضاع والأشخاص كما تخلص من استذلال الأساطير والأوهام والخرافات. [١]

ومنها قوله تعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِيْ أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِيْ بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ [٢].

فقد ذكر الله تعالى في هذه الآية صفة العبودية فقال:"أسرى بعبده" لتقريرها وتوكيدها في مقام الإسراء والعروج إلى الدرجات العلي[٣]، وروي عن أبي قاسم الأنصاري أنه قال: لما وصل النبي ﷺ إلى الدرجات العالية، والمراتب الرفيعة، أوحى الله تعالى إليه يا محمد بم نشرفك ؟ قال بنسبتي إليك بالعبودية، فأنزل الله تعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِيْ أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾.

وقد ورد في الحديث: 'قولوا عبد الله ورسوله.' [٤]

---

[١]- سيد قطب : في ظلال القرآن، ٢٥/١.

[٢]- سورة الإسراء آية ١.

[٣]- نفس المصدر: ٢٢١١/١٥.

[٤]- الآلوسي: روح المعاني، ٩-٤/١٥.

إعداد الإنسان ليكون عبدا خالصاً لله

وكل ما في الإسلام من تشريع وتوجيه وإرشاد، إنما يقصد به إعداد الإنسان ليكون عبداً خالصا لله، لا لأحد سواه، ولهذا كان روح الإسلام وجوهره هو التوحيد. ومعنى التوحيد أن يعلم الإنسان أن لا إله إلا الله، وأن يفرده تعالى بالعبادة والاستعانة، فلا يشرك به أحداً، ولا يشرك معه شيئاً. وهذا معنى:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[١] .

التي يردّدها المسلم في صلواته مرات لا يقل عن سبع عشرة مرة، كلما قرأ فاتحة الكتاب في كل ركعة من ركعات الصلاة.[٢]

الفراغ في فطرة الإنسان

والحقيقة أن في فطرة الإنسان فراغاً لا يملؤه علم، ولا ثقافة ولا فلسفة، إنما يملؤه الإيمان بالله عز وجل. وستظل الفطرة الإنسانية تحس بالتوتر والجوع والظمأ، حتى تجد الله وتؤمن به، وتتوجه إليه.

وذلك لأن في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله. وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله. وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته، وصدق معاملته. وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار إليه. وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه. وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبداً.[٣]

---

[١]- سورة الفاتحة آية ٤.

[٢]- يوسف القرضاوي، الدكتور: الخصائص العامة للإسلام، ص ٣٨.

[٣]- يوسف القرضاوي، الدكتور: الخصائص العامة للإسلام، ص ١١.

أصلين كبيرين في مجال العبادة

والعبادات الإسلامية أعني الشعائر التي يتعبد الإنسان بها لله تعالى عبادات ربانية. فالوحي الإلهي هو الذي رسم صورها، وحدد أشكالها، وأركانها وشروطها، وعين زمانها فيما يشترط فيه الزمان، ومكانها في ما يشترط فيه المكان.

فالإسلام جاء في مجال العبادة بأصلين كبيرين:

الأول: أن العبادة لله وحده، فلا عبادة لأحد سواه، كائناً ما كان.

الثاني: أن لا يعبد الله إلا بما شرعه. وهو ما جاء به محمد ﷺ من طرق العبادات. فالعمل المقبول له ركنان:

- أن يكون خالصاً لله تعالى.
- أن يكون على سنة رسول الله.

والعبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع، فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له، لم تكن عابداً له، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابداً له، حتى تكون محباً خاضعاً. ولا يكون العبد متحققا بروح العبادة وقوامها إلا بأصلين عظيمين. أحدهما متابعة الرسول ﷺ. والثاني الإخلاص للمعبود.

أربع قواعد

والعبادة مبنية على أربع قواعد: التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه، من قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح. فالعبودية اسم جامع لهذه المراتب الأربع.

وإنه لمن ميزات الدين الإسلامي أنه دين قائم على العلاقة الوثيقة بين العبد وربه، وأنه لابد للمؤمن الواثق بربه أن يكون دائماً على صلة به؛ يدعوه تضرعاً

وخيفة، ويناجيه رغبة ورهبة. وهذا الأمر لا يتأتى إلا بالاقتداء بالرسول والتأسي الحسن به في أخلاقه وشمائله وتعبده للخالق الواحد وحبه العميق لله رب العالمين.

ولما كان لنا في رسول الله (ﷺ) أسوة حسنة، رأينا أنه من الخير لنا أن نقدم في هذا البحث قبسات من سيرة الرسول ﷺ يتجلى منها بوضوح طريق العبادة ومسلك العبودية لله تعالى.

عبودية محمد ﷺ

إن نبينا محمداً ﷺ نشأ عابداً منذ أدرك سن التمييز، فكان عقله في الله تعالى يفكر كيف يعبده، ثم يجد في التفكير في خلق الله تعالى عباده، ليصل إلى إدراك ربه. وكانت كل أعماله ﷺ قبل البعثة وبعدها لإرضاء الله تعالى، فهو يخالق الناس بخلق حسن، وكان الصادق في قوله والأمين معهم في معاملته إياهم، وقد صار قلبه المعلق بالله الخاضع الخانع، لا يرى في الوجود إلا الله تعالى، ولا يحسب أنه إلا القانت له الخاضع، فصار كله لعبادته، قلباً ولساناً وعملاً وخلقاً. فكل شيء في الوجود يذكره بالله، وكلما رأى أمراً من الخلق ذكر ربه، وكلما رأى النعم في الوجود تذكر الخالق.[1]

ولقد كان محمد ﷺ يعلن أن التفكر في الله وآلائه وخلقه أساس العبادة، وأنه لا عبادة من غير معرفة الله تعالى. ولقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، سألت رسول الله ﷺ، عن سنته، فقال المعرفة رأس مالي، والحب أساسي، والشوق مركبي، وذكر الله أنيسي، والثقة بالله كنزي، والحزن رفيقي، والعلم سلاحي، والصبر ردائي، والرضا غنيمتي، والعجز فخري، والزهد حرفتي، واليقين قوتي، والصدق شفيعي، والطاعة حسبي، والجهاد خلتي، وقرة عيني في الصلاة.[2]

---

[1]- أبو زهرة : خاتم النبيين، ٢٧٧/١.

[2]- القاضي عياض اليحصبي : الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، ص ١٤٧-

وقد كان رسول الله ﷺ قد حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه وهو التعبد – الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء.[1]

هذه صورة صادقة من عبادته ﷺ قبل البعثة، وهي تدل على أنه كان قوّاماً لله تعالى طالباً مرضاته، وكان يعرف تمام المعرفة، أن ملة إبراهيم – قامت على الفطرة السليمة، والحنيفية السمحة، فاختارها وسلك سبيلها.

وإن لهذه الخلوة التي حببت إلى قلب رسول الله ﷺ قبل البعثة، دلالة عظيمة جداً، على أن العبد مهما كان متحلياً بالفضائل قائماً بألوان العبادات، من المستحسن له أن يجمع إلى ذلك ساعات من العزلة والخلوة، يحاسب فيها النفس، ويراقب ما أبدع الله تعالى من الآيات البينات الباهرة في النفوس والآفاق، ويفكر في مظاهر الكون، ودلائل ذلك على عظمة الله تعالى.

إن للنفس آفات

وحكمة ذلك أن للنفس آفات، لا يقطع شرتها إلا دواء العزلة عن الناس، ومحاسبتها في نجوة من ضجيج الدنيا ومظاهرها. فالكبر، والعجب، والحسد، والرياء، وحب الدنيا، كل ذلك آفات من شأنها أن تتحكم في النفس وتتغلغل إلى أعماق القلب، وتعمل عملها التهديمي في باطن الإنسان، على الرغم مما قد يتحلى به ظاهره من الأعمال الصالحة والعبادات المبرورة. وليس لهذه الآفات من دواء إلا أن يختلي صاحبها بين كل فترة وأخرى مع نفسه ليتأمل في حقيقتها ومنشئها ومدى حاجتها إلى عناية الله وتوفيقه في كل لحظة من لحظات الحياة.

---

[1] – البوطي، محمد سعيد رمضان: فقه السنة، ص ٦٠.

عبودية محمد ﷺ بعد البعثة:

وقد دنا رسول الله ﷺ ، بعد بعثته الشريفة، إلى الله تعالى بقلبه الطيب المخلص، وباتصال الوحي به دوماً، من غير انقطاع، فكان بذلك أعبد خلق الله تعالى، وكلما ازداد علماً بالله وشرعه ازداد عبادة وخوفاً من الله وإرضاء له، وقد روي في الصحيح للبخاري:

"أن النبي ﷺ قام حتى تورّمت قدماه. فقيل له: غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال أفلا أكون عبداً شكوراً.'[1]، وفي الصحيح للبخاري أيضا عن علقمة، لعائشة رضي الله عنها : 'هل كان رسول الله ﷺ يختص من الأيام شيئا. قالت:لا كان عمله ديمة وأيكم يطيق ما كان رسول الله ﷺ يطيق."[2]

ومعنى الديمة في الحديث أنه يحب الدوام على العبادة، وذلك لأن استدامة العبادة، ولو كانت قليلة، يجعل المؤمن في ذكر دائم لله تعالى لا يغيب عنه فهو في قلبه دائماً.

وكان ﷺ يقوم الليل طويلا، فإذا قام وصلى استفتح بالبقرة فلا يمر بآية رحمة إلا وقف، فتبسمل ولا يمر بآية عذاب إلا وقف، فتعوذ ثم ركع فيمكث بقدر قيامه يقول: سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة، ثم سجد وقال مثل ذلك. [3]

عن حذيفة بن اليمان أنه صلى مع رسول الله ﷺ، قال فلما دخل في الصلاة قال الله أكبر ذو الملكوت والكبرياء والعظمة. ثم قرأ البقرة ثم ركع فكان ركوعه نحواً من قيامه وكان يقول سبحان ربي العظيم، سبحان ربي العظيم، ثم رفع

---

[1]- صحيح البخاري، التفسير، ص٨٥٨.

[2]- صحيح البخاري، الصوم، ص ٣٢٠.

[3]- القاضي عياض: الشفاء، ص ٢٠.

رأسه، وكان قيامه نحواً من ركوعه، وكان يقول لربي الحمد، لربي الحمد، ثم سجد فكان سجوده نحواً من قيامه، وكان يقول سبحان ربي الأعلى، سبحان ربي الأعلى،ثم رفع رأسه، فكان ما بين السجدتين نحواً من السجود، وكان يقول ربي اغفر لي، رب اغفر لي، حتى قرأ البقرة وآل عمران، والنساء، والمائدة. [1]

التفكير في آلاء الله تعالى

ومع دوامه على العبادة التي وصفها القرآن، كان دائم التفكير في آلاء الله والتأمل في خلقه ليدرك عظمته وكمال سلطانه، فلم ينقطع عن عبادة التفكير التي ابتدأ بها قبل أن يوحي إليه، ولقد قال هند بن أبي هالة : 'كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان دائم الفكرة ليست له راحة.'

ولقد كان سيد العابدين ﷺ، يحصن عبادته بالاستغفار حتى لا يكون منه من الاستكثار. [2]

التضرع والخشوع في الدعاء

وكان رسول الله ﷺ، يدعو الله تعالى خاشعاً متضرعاً ويناجيه رغباً ورهباً. ولما أراد أن يترك قريشاً ويتوجه بدعوته إلى غيرهم عزم أن يسافر إلى الطائف، والمسافة بين مكة والطائف ليست مسافة سهلة، فهي تزيد على مائة وعشرين ميلا، يقطعها الراكب في نحو أربعة أيام بين جبالٍ وعرةٍ ووهاد مفقرةٍ، وقد آثر رسول الله ﷺ ، أن يقطع هذه المسافة ماشياً؛ وقد تحمل هذه المشقة لأنه كان يريد أن يكون سفره هذا خفية ولا تتنبه قريش إليه.

---

[1] - الترمذي، أبو عيسى: الشمائل المحمدية، ص ١٦٧.

[2] - أبو زهرة: خاتم النبيين، ٢٨٢/١.

ولما انتهى رسول الله، ﷺ، إلى الطائف عمد إلى نفر من سادات ثقيف، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم من أجله، فردوا عليه رداً منكراً، وفاجئوه بما لم يكن يتوقع من الغلظة وسمج القول. فقام رسول الله ﷺ، عندهم وهو يرجوهم أن يكتموا خبر مقدمه إليهم عن قريش، فلم يجيبوه إلى ذلك أيضاً. ثم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبّونه ويصيحون به، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى دميت قدماه الشريفتان، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى لقد شج في رأسه عدة شجاج.[1] واضطره المطاردون أن يلجأ إلى بستان لعتبة بن ربيعة فرجع عنه من كان يتبعه من سفهاء ثقيف، ثم عمد عليه الصلاة والسلام، وقد أنهكه التعب والجراح، إلى ظل شجرة عنب فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه. فلما اطمأن النبي ﷺ ، في ذلك الظل رفع رأسه يدعو ربه بهذا الدعاء:

" اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بي غضبك أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك." [2]

وقد أكثر رسول الله ﷺ الابتهال والتضرع والدعاء يوم بدر ويقول فيما يدعو: 'اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض'. وجعل يدعو ربه في ضراعة وابتهال: "اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم نصرك، ويرفع يديه إلى السماء حتى سقط الرداء عن منكبيه، وجعل أبو بكر يلتزمه من ورائه ويسوي عليه ردائه." [3]

---

[1]- محمد بن سعد: الطبقات الكبرى ١/١٠.
[2]- إسماعيل بن كثير: السيرة النبوية ٢/١٥٠.
[3]- أبو زهرة: خاتم النبيين ٢/٧٥٣.

وكان النبي ﷺ يطمئن بأن النصر لهم، حتى كان يشير إلى أماكن متفرقة في الأرض ويقول: 'هذا مصرع فلان' ولقد وقع الأمر كما أخبر؛ فما تزحزح أحد في مقتله عن موضع يده كما ورد في الحديث.

ومع ذلك فقد رأينا يقف طوال ليلة الجمعة في العريش الذي أقيم له، يجأر إلى الله تعالى داعياً ومتضرعاً، باسطاً كفيه إلى السماء يناشد الله عز وجل أن يؤتيه النصر الذي وعد حتى سقط عنه ردائه وقال أبو بكر: ' كفى يا رسول الله إن الله منجز لك ما وعد.'

الإيمان بالفوز والنصر

أما اطمئنان النبي ﷺ، وإيمانه بالنصر، إنما كان تصديقاً للوعد الذي وعد الله به رسوله، ولا شك أن الله لا يخلف الميعاد. وأما الاستغراق في التضرع والدعاء وبسط الكف إلى السماء، فتلك هي وظيفة العبودية التي خلق الله تعالى لأجلها الإنسان.

فالفوز والنصر والنجاح لا يتأتى مهما توفرت الوسائل والأسباب إلا من عند الله وتوفيقه، والله عز وجل لا يريد منا إلا أن نكون عبيداً له بالطبع والاختيار، وما تقرب متقرب إلى الله بصفة أعظم من صفة العبودية، وما استأهل إنسان بواسطة من الوسائط استجابة دعاء من الله تعالى، كما استأهل ذلك بواسطة ذل العبودية يتزيي ويتبرقع به بين يدي الله تعالى.

الحكمة في الابتلاء

أما أنواع المصائب والمحن المختلفة التي تهدد الإنسان في هذه الحياة أو تنزل به، فما هي إلا أسباب وعوامل تنبهه لعبوديته، وتصرف آماله وفكره إلى عظمة الله سبحانه وتعالى وباهر قدرته، كي يفر إليه سبحانه و تعالى ويبسط

أمامه ضعفه وعبوديته، ويستجير به من كل فتنة وبلاء، وإذا استيقظ الإنسان في حياته لهذه الحقيقة وانصبغ سلوكه بها، فقد وصل إلى الحد الذي أمر الله عباده جميعا أن يقفوا عنده وينتهوا إليه.[1]

والدعاء عبادة، بل هو مخ العبادة، فقد قال الله تعالى:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُوْنِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِيْنَ يَسْتَكْبِرُوْنَ عَنْ عِبَادَتِيْ سَيَدْخُلُوْنَ جَهَنَّمَ دَاخِرِيْنَ ﴾[3].

والله هو الموفق لما يحبه ويرضاه.

---

[1]- البوطي: فقه السنة، ص ١٦٢.

[2]- أي عن دعائي.

[3]- سورة غافر آية ٦٠.